وقفات عند حجة الإسلام الغزالي

بقلم الدكتور عبد القادر محمود

قدم الاستاذ اسماعيل المهدوي في العددين العاشر والحادي عشر من « الآداب » الكريمة اكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨ ، مـا اسماه دراسة جديدة ! لحياة الامام الغزالي وافكاره ، في حماسة طاغية مهرولة ، اضاعت كثيرا جدا من روائع لفتاته العقلية ، والقت على تحقيقه ضبابا ربما غشى على كثير من عقول الدارسين من الشباب .

ولست هنا ادافع عن حجة الاسلام ، ازاء من هاجمه من القدامى والمحدثين ـ فالغزالي ليس في حاجة الى دفاعي او انصافي ، لان ما قدمه من تراث صحيح ، وما سجله من اعترافات في كتبه الصحيحة يدحض ما نسب اليه وما دس عليه في كثير من الرسائل المدخولة او المنحولة . ولكن لفيفا كريما من طلبتنا في قسم الدراسات العليا بجامعة الخرطوم وجامعة القاهرة بالخرطوم والجامعة الاسلامية بام درمان فدموا الي هذه الدراسة لعزيزنا اسماعيل المهدوي ، وطلبوا بالحاح ثائر ان اعقب ولا املك الا ان استجيب لهذا الدعاء ، راجيا لعزيزنا الكريم ولهم وللمجلة الزاهرة كل توفيق ، سائلا الله اللطف والرعاية ، لكل من ظلم عقله أو ظلمه عقله ، فسعى بدون علم ولا هدى ولا كتاب مبين الى ظلم الغزالي والاسلام في عقول الناس ...

أولا : حول كتب الغزالي ورسائله :

● اعتمد الناقد الحصيف في هجومه على الغزالي ، على هذه الكتب في الغـالب :

أ ـ المضنون به على غير أهله .
ب ـ مشكاة الانـوار .
جـ ـ معارج القـدس .
د ـ معراج السالكـين .
هـ ـ الرسالة اللدنيـة .
و ـ بداية الهداية .

وأؤكد للناقد ان هذه الكتب مشكوك في صحة نسبتها للغزالي ، واذا كان للغزالي نصيب منها او من بعضها بالاسم ، فان في كثير من فصولها ، ما يتناقض مع اتجاهه ونهجه اللذين اتضحا في كتبه الاصيلة ، امثال المنقذ ، والتهافت ، والرد على الباطنية .

واذا كان بعض المستشرقين وتابعيهم ، قد نسب هذه الكتب للغزالي بحكم الرواية والنسخ او الطبع والنشر ، دون أي تحقيق علمي مقارن ، كما رأى امثال ماسينيون ، (ماسينيون : مجموعة نصوص ٦٠ ـ ٧٠) والدكتور عبد الرحمن بدوي مثلا (مؤلفات الغزالي ١٨) ، ومونك في : امشاج من الفلسفة العربية واليهودية٣٧٩)

اذا كان هذا قد حدث من بعض المستشرقين وتابعيهم فان ابن تيمية امام السلفية الاكبر قد القى ظلال الشك على كتاب المضنون به على غير اهله وغيره حين ذكر ان ما فيه من اسرار الحقائق ، فيه قول الصائبة ، وان هذا يستبعد على ابي حامد ، واكد ان هناك طائفة من العلماء يستبعدون ذلك الكتاب من كتبه وغيرها ، ويكذبون ثبوته عنه (ابن تيمية : نقض المنطق ٤ ـ ٥٧) . كما نفى ذلك ايضا السبكي في طبقات الشافعية ص ٤ ـ ١٣١ . كما اكد الاساتذة الاجلاء الدكتور ابراهيم مدكور (مجلة الرسالة ١٩٣٦ عدد ١٤١ ـ ١٤٢) ، والدكتور محمود قاسم (مؤتمر الغزالي دمشق ..)، والدكتور محمد يوسف موسى (تاريخ الاخلاق ١٩٣) ـ اقول ان هؤلاء الاساتذة وهم متخصصون قد شككوا في صحة نسبة هذه الكتب للغزالي ، لان فيها توكيدا لما نقضه وهاجمه ، وبخاصة حول التصريح بقدم العالم ، ونفى العلم القديم بالجزئيات ، والاتحـاد او الامتزاج بالله . واذا كان بعض العلماء يرون ان مشكاة الانوار ، او كثير من فصولها له فقد رأيت بنفسي مخطوطا بدار الكتب المصرية في مجموعة (اخلاق تيمور ـ ٢٠٦ ـ تصوف حليم ـ ١٨٤) نفس مشكاة الانـوار وبالاسم منسوبة لابن الفقيه علاء الدين الحافظ المتوفى سنة ٨٧٧ هـ بعد الغزالي بأكثر من ثلاثة قرون ونصف .

ثانيا : حديه هرب الغزالي ودعوى خوفه وانعزاله :

زعم الناقد الحصيف من عنديات ان الغزالي دافع عن وجهة نظر وحكم السلاجقة السنيين ، حرصا على مكانته العلمية الدنيوية ، في جامعتي بغداد ونيسابور النظامية ، وانه هرب حين انكسرت شوكتهم وزعم انه انعزال لما اهتز يقينه ، واهتزت معرفته الايمانية . والواقع ان هذه الدعوى فارغه ، فقد استعان الغزالي بهم كقوة حاكمة ممتازة ، لحمايه مذهب اهل السنة ، ازاء التيارات العارمة الخبيثة ، التي جاء بها القرامطة وتلاميذهم من الباطنية على اختلاف شيعهم الاسماعيلية وغير الاسماعيلية ، والتي جاء بها غر القرامطة لدى مذاهب الدهرية ، والمانوية ، والثنوية ، والصابئة وغيرهم ، وازاء التيارات العقلية المتطرفة ايضا ، تلك التي ترسب من مذهب المعتزلة ، اولئك الذين دافعوا بحق وصدق عن ديانة العـدل والتوحيد ، وازاء التيارات السلفية الجامدة التـي تحجرت وتوقفت عند حرفية النصوص ، بغير فهم احيانا كثيرة ، وبفهم احيانا قليلة . اريد ان اقول للناقد والقارىء الحصيف معا ان الغزالي انكر التقليدية من البداية ، حتى منذ صغره عندما سرق اللصـوص تعليقته فكسر التقليدية ، والتلقين ، واعتمد على التفهم والتفكير والعقل بعقل هادىء لا بعقل محرق محترق حارق !! . وقد اكد الغزالي منهجيته حين قرأ واستوعب كل المذاهب الهدامة للفكر الاسلامي دخيلة او منفصلة ثم بدأ يحللها فقرة فقرة ويرد عليهـا ، كما حدثنا في اعترافاته ، وكما عرفناه في جدلياته . ومن العقل ان نؤكد أنه قد اصابه ولا شك مما قرأ رشاش من كثير من التيارات لكنه لم ينتقص ذرة واحدة من اصول ايمانه وعقيدته ، لكن ليس من العقل اطلاقا ان نأخذ الغزالي بما اصابه من رشاش فنؤكد ان هـذا الرذاذ هو فكرة الاصول او هو منهجه او هو معتقده ، فان للتجارب بكل اخطائها وصوابانها ثمنها ، عبر الوصول الى الحقيقة .

نصل من هذا الى القول بان الغزالي مرت به تجربة كالتي مرت بالقديس اوغسطين قبله ، وبديكارت بعده وكان الغزالي اعمق واقوى منهما حين اعتمد على الارادة لاثبات الوجود ، لاعلى الخطيا ، ولا على الفكر كما اعتمد اوغسطين وديكارت . نقول ايضا ان الغزالي لـم يلجأ الى سلطان السلاجقة ، في قيامه بالعمل العلمي مناظرا ، ومعلما او لم يهرب حين انكسرت شوكتهم ، خوفا على نفسه ، أو طمعـا في منصب يود الرجوع اليه في الوقت المناسب ، وانما هو عاش ثورة عقلية واجه منها اول ما واجه سؤالا خطيرا هو : ما حقيقة ايمانك ؟ هل هو عن تقليدية ام عن اصالة . ولما ترددت اجابتـه ، وهزته حيرته هاجر بعقيدته الحائرة لينجو بما كمن فيها ، وليستعين بقوة فطرته في انقاذها والوصول بها عبر هذا الشك المنهجي الى ساحة اليقين التي لا يسبح فيهـا ضبـاب من شـك ، ولا يرقى اليها ظل من خداع

ثالثا : موقفه العقلي والذوقي من العقل :

زعم الناقد ، كما زعم كثيرون غيره من قبل في القديم والحديث ، ان الغزالي قد جحد العقل ووضع مكانه الذوق الصوفي ، وذلك بعد خروجه من عزلته في منارة المسجد الاموي في دمشق ، وحتى نهاية حياته في عزلته الاخيرة . كما زعم ايضا ان الغزالي اعتبر الناس جميعا علماء وغير علماء عواما يجب الجامهم تماما عن علوم العقائد ، فهما خاطئا واهما لكتابه الشهير الجام العوام عن علم الكلام .

ونقول ان الغزالي لم ينكر قيمة المحسوسات والمعطيات الحسية ، بل اكد بملاحظته العلمية ان الحواس لها قيمتها في المعرفة ولكنها فقط مجرد نوافذ للمعرفة لانها خداعة كما يقول مصطلحه الدقيق . وهو قد آمن بالعقل ولجأ اليه في تجربته لينقذه . ونجح العقل في امور المحسوسات والماديات وما يلابسها فآمن به ، لكنه رآه لا يدري ما فوق وما وراء المحسوسات من حقائق ومبادىء وجواهر فاكد بعقله عجز العقل في هذه الامور .

وقد ناقش الغزالي علماء الكلام والفلاسفة بمناهجهم وبغير مناهجهم ، فاكد قصور سعيهم الى اليقين ، حتى وصل الى ان براهين الالهيات وامثالها غير قاطعة كبراهين الهندسيات . واذن فيجب الاعتماد على غير العقل لا بالغاء العقل ، بل بالصعودية الى ما فوقه ، عن طريق البصيرة ، بمنهج الحدس والذوق . وبهذا جعل الغزالي للدين حق الوجود مستقلا عن العلم فكان في هذا سبقا لكانط Kant وحلا للاشكال الذي لم يحله كانط كما يقول الدكتور محمد اقبال .

تجديد ـ التفكير الديني في الاسلام (الترجمة العربية ٢٨) والنص:
The Reconstruction of Religions Thought in Islam P 4-5
وانظر أيضا (Korner : Kant, P. 106 - 120)

ثم ان الغزالي حين قرر الجام العوام عن علم الكلام أجاز لغير العوام من الخواص دراسة هذا العلم . والخواص هنا درجات وليسوا هم الصوفية وحدهم . ثم ان الصوفية ذاتهم درجات ومراتب. المهم انه أجاز دراسة العلم بشروط أهمها : أن تقع لشخص ما ، شبهة لا يمكن رفعها الا على طريقة أهل الكلام ، او حالة شخص كامل العقل، راسخ القدم في الدين ، يريد تحصيل طبيعة الكلام ، لكي يداوي بها مريضا وقع في الشبهات ، أو ليفحم بها مبتدعا ، أو ليحرس عقيدته وايمانه اذا قصد غوى ـ اغواءه (الغزالي : فيصل التفرقة ١٠/٥ ، المنقذ ٢٠/١٥). أما اتغرض الأساسي من الدراسة على وجه الاجمال، فهو (ادراك الحقيقة الدينية ادراكا يؤيده العقل) ، حتى يكون في درجة العلم الرياضي أو براهين الهندسيات كما يقول .

ولا شك أن موقف الغزالي من العقل الحادس هو موقف ديكارت وبوهمه ووليم جيمس ، وبرجسون ، من فلسفة الدين ، ومن فلسفة العقل المنور او الفائق كما تقول فلسفة هؤلاء المتاخرين ، وكما تؤكد فلسفة اسبنوزا عن المعرفة المباشرة المجوهر ، على نحو (ما نستقيه من وجود النور بمجرد ادراكنا له) (انظر : Goblot : Vocab. philos. P. 24 ، وانظر : Spinoza : Ethique XXXII

وانظر يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ٤٠٠ ـ ٤٠٨ ـ ٤٢٢ ـ ٤٣٣
وانظر للمقارنة : الغزالي : ميزان العمل ٣٦ ـ ٨٤ .

ثم ان موقف الغزالي واضح متصل في مبدئه الثابت السافر القائل : (من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر ففي العمى والضلال) (الاحياء ص ٣ ـ ٣٤٨ ـ ٣٥٠ ـ المنقذ ـ ٦٣ ـ ٦٥) وقد اكد هذا ابن خلدون ، الذي لم يعجب ناقدنا الحصيف ايضا ، فاعتبره كالغزالي صاحب فلسفة متخلفة ـ اقول قد اكد هذا ابن خلدون عن الغزالي في وضوح حين قال (ابن خلدون) ان اعتراضات الغزالي كانت على منهج الفلاسفة لا على افكارهم ، من حيث انه منهج ينتهي الى الظن لا الى اليقين ، لكنه يعلن في صراحة (انها اصح ما علمناه من قوانين النظر وان كل المطلوب ممن يدرسها ان يكون متبحرا في امور الدين ...)

والواقع الذي لا مرية فيه ان الغزالي قد اكد اننا لا نستطيع ان نعرف اسرار الحقائق ، او ان نعرف العالم كما هو في حقيقته ، بل الطريقة المحدودة التي بامكاننا ان نعرفها اونعرفه بها .

ان العلم حقا وصف صادق للحوادث الظاهرة ، اي للاشياء بالشكل الذي يسمح لنا في تركيب عقولنا ان نختبرها ، لكنه ليس في وسعه ان يبرر لنا اثبات او انكار اي شيء عن العالم الحقيقي ، أي العالم كما هو في ذاته ، كما يبدو لعقل كامل كعقل الله . ولقد سئل كانط كما سئل الغزالي فاجاب كل منهما باسلوبه على اننا نملك قوى اخرى ، وهي ليست علمية وعقلية (كما يقول كانط مثلا) بالمعنى الصحيح . انما (هرقوية وخطيرة في فعاليتها الى حد لا يمكن معه اهمالها واعتبارها مجرد تصورات وهمية . كما انها ستظل مستعصية على العقل ، اني ان نفترض بان العالم في الحقيقة هو شيء مختلف عما يستطيع العلم البرهنة على وجوده . وعلى هذا فعندما يعجز العقل عن الفهم ، او العلم عن الاثبات ، يحق لنا ان نركن الى البصيرة الوضيئة ، الى الايمان) .

Kant : Critique of pure Reason XIX, XXX.

ولهذا نجد الغزالي بعد تجاربه يؤكد في النهاية خطورة العقل المنطرف على العقيدة ، وعلى الدين ، وعلى الحياة ، ولهذا ربطه بالدين رباطا فلسفيا حين قال ان العقل شرع من الداخل ، والشرع عقل من الخارج وكان هذا الرباط رباطا عقليا معقولا. يقول الغزالي (الداعي الى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفي بمجرد العقل عن انوار القرآن والسنة مغرور) (والعقل كالأس ، والشرع كالبناء ، ولن يغنى اس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن اس ...) (الغزالي :احياء : ص١/٧٤ . ميزان العمل /٣٠ ـ ٣٢ وانظر الدكتور محمود قاسم : مؤتمر الغزالي ١٦٨/١٧١)

لقد عاش الغزالي في نفس العصر الذي عاش فيه المعري والخيام اللذان وصلا بعقلهما أو وصل بهما عقلهما الى لا أدرية قاتلة ، قضت فيما قضت بعماء الارادة الكلية كما قال معهما وبعدهما بقرون فيلسوف التشاؤمية القاتلة شوبنهور (١٨٦٠ م) . (د/ عبد القادر محمود الفلسفة الصوفية في الاسلام : مصادرها ونظرياتها ومكانها من الدين والحياة (١٩٩ ـ ٢٩٨) ، ٦٠٥ ـ ٦٩٠) وانظر له ايضا فلسفة الشك واللاادرية لدى المعري والخيام : مجلة كلية الآداب م ٢٥ ص ٢/ ديسمبر / ١٩٦٣

فماذا كان يريد الناقد اللوذعي الأريب من الغزالي وقد وقف موقف الوسط العادل بين تطرف المنهج العقلي ، وجمود المنهج السلفي ؟ ثم ماذا يريد من قوله الخطير . ان الغزالي أو أهل السنة جميعا دون استثناء أعجزوا العقل ثم كفروه ليضعوا في النهاية الذوق الصوفي اللاعقلي ؟

ان ما يريده واضح وهو يعرفه ، وهو أمر فاضح حقا لاصحاب العقول ومناهج العقول ، التي لم تفهم أن الغزالي العظيم قد حكم العقل في المتذوقات (فربما كانت أوهام شيطان) كما يقول الغزالي ماضيا من المنهج العقلي الى المنهج النفسي التجريبي .

ابن خلدون : (شفاء السائل /٨٤

رابعا : دعوى التواكل والهروب من العمل والحياة :

اما هذه الدعوى العريضة فقد فهمت ، مما عرضه الغزالي في احيائه من أحاديث ذم الدنيا ، أو من تفاسيره للآيات القرآنية أمثال : (وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا .. ان الغزالي قد عرض ما عرض للترغيب والترهيب . واذا كان قد أورد حقا بعض التي لم تصح ـ (وهو يعلمها)ـ فقد أتى بها لنفس السبب . وهو لم يأت بها لاثبات حكم او للاستدلال على مبدأ . ذلك انه يذكر الآيات القرآنية التي يثبت بها ما تؤدي اليه من أحكام وقواعد . وهي على هذا الوضع كافية في الاثبات والاستدلال... ثم يأتي بعد ذلك بالاحاديث وبأقوال الصحابة والتابعين وأخبار

الصالحين . ويسير هكذا في شواهد الاثبات والاخبار والآثار وشواهد العقل والشرع دون ان ينتقص ذرة واحدة من سلامة الاخلاص والصدق في الايمان . وعلى هذا فحين نستبعد هذه الاحاديث التي جاء بها لمجرد الترغيب والترهيب بالمدات ، فان كل المبادىء التي استندت الى القرآن والعقل والشرع تحتفظ بقيمتها من ناحية الاثبات والاستدلال . على ان العالم الحجة زين الدين ابي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي ت ٨٠٦ هـ قد قام بتخريج هذه الاحاديث في كتاب الاحياء بما يتفق والاصول التي سار عليها الغزالي ، على ضوء المنهج الاسلامي. (الدكتور عبد الحليم محمود : الغزالى مجلة تراث الانسانية م ٦/يونيو ١٩٦٣) .

اما فكرة التواكل ، تلك التي لم يفهمها الناقد اللوذعي ، والتي تراجع عن دعواها شيخنا المرحوم الدكتور زكي مبارك بعد الجري وراءها (زكي مبارك : التصوف الاسلامي ص ٢/١٧٢/١٩٥٤ وانظر اساس الابهام في كتابه الاخلاق عند الغزالي ٢٤٢) ـ نقول ان فكرة التواكل لم تفهم الا من زاوية هي اقرب الى زاوية الذي قرأ الآية الكريمة (ويل للمصلين) وتوقف عند هذا الويل ونادى به ، ولم يعرف ولم يدرك ان الويل فقط للساهين من المصلين ، الذين عن صلاتهم ساهون . أقول ان حقيقة التوكل عند الغزالي مرتبطة بالعمل (فلا توكل دون سعي أو دون عمل) (وقد يظن الجهال أن شرط التوكل ترك الكسب ، وترك التداوي ، والاستسلام للمهلكات وذلك خطأ . لان ذلك حرام في الشرع) (ان وقود التوكل هو اخلاق النجد والتشمير والعمل ، وليست أخلاق الدعة والتراخي والتعقود) (الغزالي : احياء ص ٢ ٦٦/٦٢/ ، ص ٤/٢٨٠ /٢٩٠ /٢٣٨ /٣٤٩ /٣٨٥ / وانظر أيضا له ميزان العمل ٨٠/٩٠ .)

والغزالي الذي دعا الى العمل والتوكل حرصا على سلامة الايمان الصحيح والتوحيد الحق ، هو الغزالي ذاته الذي دعا السلاطين والامراء المسلمين الى استخدام القوة مع الغوغاء والرعاع من ذوي الاحلام السائرين وراء ركاب انصاتين المضللين من أصحاب المذاهب الهدامة . كما دعا بنفسه الى توحيد كلمة المسلمين في جولاته بين دمشق ، وبغداد ، والاسكندرية .

ونعود فنضع هذه الحقائق امام القارىء الحصيف :

١ ـ ان الغزالي من الفلاسفة الذين عاشوا آراءهم وفلسفتهم بكل تطوراتها ، ولا يمكننا ان نفهم فلسفتهم بمعزل عن حياتهم ، لانهم يحققون في هذه الحياة نفس الفلسفة ، او لان الفلسفة مستخلصة من هذه الحياة . ويمثل هذا معه سقراط في القديم ، وأوغسطين في العصر الوسيط ، وكير كجارد وبردياثف ، في العصر الحديث .

٢ ـ بدأ الغزالي حياته على اساس علمي منذ صباه ، (فقد كان التعطش الى معرفة حقائق الامور دأبه وديدنه) ـ كما يقول ـ ، (حتى انحلت عنه رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهده بالصبا) .

٣ ـ اقام الغزالي نظريته في الاخلاق على اساس نظريته في المعرفة، التي ربطها بالسعادة . فالحياة النظرية لا صدق لها ولا وجود لها الا بالتحقيق في السلوك التطبيقي لها . وقد وصل في نظريته الى اننا لن نعرف الله حق المعرفة ، الا من خلال العبادة الصادقة والمحبة الخالصة (فلن يحب الانسان الا ما يعرف) (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) .

ولما كانت الحواس هي النوافذ للمعرفة أو المصادر الاولى للمعرفة، فان السعادة الحاصلة من وراء كل مصدر من مصادر المعرفة حسية وعقلية وذوقية ـ هذه السعادة تتوقف درجتها وقيمتها ومكانتها حسب اساسها ومنهجها وهو في هذا سابق لامثال اسبنوزا وغيره في الفلسفات الحديثة .

٤ ـ كانت مهمة الغزالي واضحة في أنه لم يقف في وجهة نظره الاخلاقية عند تقويم السلوك فقط ، بل اتجه الى ما وراء ذلك في البحث ، في مشكلات الطبيعة على اساس من اليقين ، يقين البصيرة والعقل الفاحص الفائق المميز لما يمكن ان تكون اوهاما ويقينيات .

وهذا ما ذهب اليه برجسون حديثا في تفرقته لما بين الاخلاق المغلقة البيولوجية ، التي تتخذ مادتها من الانسان الادنى وتخضع للضرورة الاجتماعية وتقوم على القسر الاجتماعي ، وبين الاخلاق المفتوحة، التي تعلو على مستوى العقل وتتجه نحو الحياة الصاعدةمتخذة مادتها من وفود فكر الابطال والعباقرة وأهل المعارج الروحية . وهؤلاء لديهم القدرات الخاصة على الاحساس بفيض انفعالات جديدة ، زادها ووقودها المصدر الاسمى للحياة ، الذي تصدر عنه شتى ضروب الابداع .

٥ ـ تشابهت الوضعية المنطقية الحديثة مع الغزالي في الوثوق بالعلوم الصورية من منطقية ورياضية واعتبارها يقينية ، لكن الغزالي سبقهم في ان المعرفة التجريبية ترجيحية احتمالية لا تبلغ مرتبة اليقين ، وخاصة في فلسفته للعلية ، التي سبق بها ايضا العلم الحديث والفلسفة الحديثة .

٦ ـ حل الغزالي مشكلة الميتافيزيقيا التي أنكرتها الوضعية الحديثة وساداتها القدماء ، بأن طريق معرفتها والخوض فيها ليس بالمنهج العقلي ، في الوقت الذي أقر فيه المعرفة الرياضية والمنطقية عن طريق العقل ، وفي الوقت الذي حدد فيه طريق الحواس للمعرفة التجريبية ، وأكد ان غايتها الترجيح لا اليقين ، مما سبق فيه العلم الحديث ، كما سبق كانط في أنه (الغزالي) جعل للدين حق الوجود مستقلا عن العلم فيما لم تحل اشكاله فلسفة كانط .

٧ ـ كان الغزالي موضوعيا (حتى في أيام أزمته العنيفة) فهو يكتب مقدمة لكل رأي يؤيده أو يعارضه ، ثم يحلل الرأي اجمالا ثم تفصيلا ويمسك به فقرة فقرة ثم اجمالا ، تأييدا او معارضة ، بكل امانة، لا يوصف بها المحدثون المتخصصون . وهو حتى في مناقشاته لارباب التصوف ، يؤكد ان غاية التصوف الموضوعية (الاستقامة في جنب الله، على سلوك مثمر ، ونفع للآخرين « احياء ص ٤ /١٠/ المنقذ ٩٥/ ـ ٩٦» وموضوعيته تتجلى ايضا في ان الملاحظة عنده ثلاثة : المشاهدة وهي المقصودة ، ثم المفيدة وهي القائمة في التجربة العملية ، ثم الملاحظة مع الاشتراك في النشاط وهي أعلى مراتب الملاحظة لانها فاعلية على الطبيعة . يقول الغزالي مثلا (فان وقع لك الشك في شخص معين او أمر معين فلا يصح اليقين الا بمعرفة احواله : اما بالمشاهدة او التواتر او التسامع) (المنقذ ١٦٩) وهو في التأمل الباطني أو الاستبطان كما نقول يقول : ثم تفكرت في نيتي للتدريس ، فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه (المنقذ ١٥٣) . ومن الامثلة عنده للاختبار الاجتماعي قوله (فاني تتبعت مدة طويلة آحاد الناس والخلق . اسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع ، واسأله عن شبهته ، وابحث عن عقيدته ...) المنقذ ١٧٥ ـ ١٨٧ . ومن اصدق امثلة التجربة عنه (وقد جربت شيئا من النجوم ، وشيئا من الطب فوجدت بعضه صدقا ، فانقدح في نفسي تصديقه وسقط من قلبي استبعاده) ولعل هذا وامثاله يلقى الضوء على دعوى أيمانه بالخرافات .

٨ ـ احيا التصوف على المنهج السني بعد نكبة التصوف لدى مدارس الحلاج ومن سبقها ولحق بها ، حتى أصبح التصوف لدى مدرسة الغزالي دينيا ، وحتى كانت رسالة حجة الاسلام انه عمق روحانية الاسلام في العبادات والمعاملات بعد ان جمد على نهج الجامدين من السلفية الظاهرية من الفقهاء ، وبعد ان جمح على مناهج أمثال مدارس البسطامي والحلاج ، ومدارس الغلاة من الشيعة ، وحتى ان الدارس لاي باب من ابواب الفقه كالعبادات والمعاملات . كما يقول ويؤكد استاذنا الدكتور احمد امين (ظهر الاسلام ص ٤/١٦٥ ـ ١٦٩) يرى الغزالي (يعرضه عرضا علميا ، فنيا لا كعرض الفقهاء) وحتى كان روح المدرسة الاسلامية العربية الاكثر أصالة وابداعها كما يؤكد لنا وللتاريخ ارنست رينان مؤرخ ابن رشد . (ابن رشد والرشدية / ـ ١١٢ / الترجمة العربية) .

واعود فأقول صادقا مخلصا ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم والسلام على من اتبع الهدى .

الخرطوم

عبد القادر محمود